إهـــداء

إلى روح أبي الطاهرة
الذي غرس في قلبي حب الأزهر
والاعتزاز به.. وقال:
لو كان لي من الأبناء عشرة ما علمتهم
إلاّ في صحن الأزهر القديم..
والذي كان يضرع إلى الله دائماً بدعاء عباد الرحمن:
﴿ربّنا هبْ لنا من أزواجِنا
وذرياتنا
قرّة أعين
واجعلنا للمتّقين إماماً﴾

شكـــر وتقديـر

إلى لجنة المناقشة التى أجازت هذه الرسالة بمرتبة الشرف الأولى.. فى ١٧ من المحرم سنة ١٣٩٧هـ الموافق ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٧٧م.

الأستاذ الدكتور: عوض الله جاد حجازى. رئيس جامعة الأزهر.

الأستاذ الدكتور: محيى الدين أحمد الصافي. أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين.

الأستاذ الدكتور: محمد كمال جعفر. أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بكلية دار العلوم.

الأستاذ الدكتور: محمود حمدى زقزوق. وكيل كلية أصول الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ﴿ نزّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثاني ﴾، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ﴿ علّم القرآن، خلقَ الإنسانَ، علّمهُ البيان ﴾ وأشهد أنَّ سيّدنَا محمداً عبدهُ ورسوله «جاء بالحق وصدق المرسلين» اللّهُمَّ صلِّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار وعلى كل من أقام وجهه الدين حنيفاً وصدق ما عاهد الله عليه وقال إنني من المسلمين.

وبعد: ـ

فعلى مدى خمسة وعشرين قرناً استقرأت ظاهرة فلسفيّة، تمثل قمة الفكر الفلسفي وذروة سنامه، وتقدّم خُلاصةً وافية لفكر الفيلسوف، وتعتبر وثيقة تاريخية هامّة للمسيرة الإنسانية الكبرى.

تلك الظاهرة هي «المجتمع المثالي» كما تخيّله الفلاسفة الذين نهضوا بعبء تقديم أنماط للمدن الفاضلة، ونماذج للدول الرشيدة في محاولة لتحقيق أحلام البشر في إقامة الفردوس الأرضي.

والمجتمع المثالي في الفكر الفلسفي يعني نُظماً متعددة ومذاهب مختلفة في السياسة والاجتماع والاقتصاد، الأمر الذي يؤكد عمق الصلة بين الفسلفة والمجتمع، ويظهر ـ بجلاء ـ أن تاريخ الفلسفة سجل حافل

للكفاح العقلي من أجل الحياة، ممثلة في حقائق الوجود الكبرى، ومكانة الإنسان في الكون حوله، ومناهج البشر نحو السعادة.

وقد جعلت من «المجتمع المثالي» عنواناً لتلك الظاهرة الفلسفية التي تعاقبت في العصور الفكرية تحت عناوين مختلفة مثل:

«الجمهورية» عند أفلاطون في العصر اليوناني، «والمدينة الفاضلة» عند الفارابي في العصر الإسلامي، «ويوتوبيا» عند توماس مور في عصر النهضة، «والعقد الاجتماعي»، عند جان جاك روسو في العصر الحديث إلى غير ذلك من الأسماء والإطلاقات.

ويعلم الله مدى ما عانيته في سبيل الحقيقة وما كابدته من أجلها، وخاصة في جانب المراجع التي استوعبت الفكر الفلسفي كله، في جميع دروبه وكافة مسالكه، بالإضافة إلى الوقفات المتأنية والمراجعات الدقيقة في فهم الأسلوب الفلسفي الذي تعدد بتعدد الفلاسفة فهناك ـ على سبيل المثال ـ استطراد مملّ لدى أفلاطون في جمهوريته، وغموض ودقة تركيز لدى الفارابي في «آراء أهل المدينة الفاضلة»، ورمزية أدبية وشعرية عند «نيتشه» في «هكذا تكلم زرادشت» وقلق وعسر تعبير في بعض الترجمات العربية عن الفكر الماركسي.

ومما ضاعف الجهد ـ وبارك البحث في نفس الوقت ـ أنَّ هذه الدراسة الشاملة قد عقّب عليها عقل إسلامي يناقش الفكرة ويُجلي أصولها ويقومها بموازين القرآن ومقاييس الحق الإلهي حين يكون الأمر محتاجاً لفصل الخطاب، ويمر عليها مرَّ الكرام حين يحتمل الأمر أوجهاً ولا يضير الناس الخلاف حولها.

ولعل في الدراسة النقدية الإسلامية للفلسفة عامة، والمذاهب الاجتماعية خاصة ما يقدم للشباب الحائر في عالم اليوم مشاعل الهداية ومصابيح الإيمان.

ذلك أن الكون كلّه يتّجه إلى الله في طاعة خاضعة وخشوع ساجد، والحياة بقضّها وقضيضها رهنّ الإرادة الإلٰهية، والإنسان وسط هذاالعالم قد تحمل ـ وحده ـ الأمانة في قيادةالحياة بمنهج الله، ومن هنا كانت السياسة والاجتماع فصلاً من فصول ذلك المنهج الإلٰهي، وأصبح البحث فيه موصول الأسباب بشِعَب الإيمان وعقائده.

ومبلغ علمي أن المكتبة العربية خالية من كتاب يتناول هذا الجانب بالدراسة الموضوعية والتحليل العميق والنظرة الشاملة، اللّٰهُمَّ إلاّ صفحات قلائل كتبها سلامة موسى في «أحلام الفلاسفة» والدكتور زكي نجيب محمود في «أرض الأحلام»، والأستاذ فؤاد محمد شبل في «المدينة الفاضلة».

وتلتقي هذه الكتابات القصيرة على ما يأتي:

١ ـ العرض السريع مما يقرّبها إلى قصص الأطفال.
٢ ـ الاهتمام بشخصيات ليس لها من الشهرة والمكانة الفلسفية ما يؤهّلها لتأسيس مذهب أو إقامة نظرية.
٣ ـ الوقفة العُجلى أمام عمالقة الفكر الفلسفي، وعلى سبيل المثال فقد كتب الأستاذ فؤاد شبل عن جمهورية أفلاطون خمس صفحات، وعن أرسطو ورقة واحدة، وعن روسو ثلاثة أسطر.
٤ ـ في كتابة سلامة موسى خاصة تهكم بالدين، وافتراء على الإسلام، وإغفال لحقائق التاريخ... واستمع إليه وهو يقول: (فقد كان الإغريقي جريئاً يجازف في الخيال ولا يبالي بالآلهة أو الناس).

(فإن المسيحية قد ضيقت هذا المجال (الحرية الفكرية)؛ لأنها أوجدت من جنة النعيم في الآخرة بديلاً عن مثل هذه الأحلام، ولم تكن هذه الأرض في نظر المسيحية سوى دار بلاء وتجربة يعبرها الناس إلى جنة النعيم، وهذا أيضاً هو نظر الإسلام)!!.

ثم كان ملوك النصارى وخلفاء المسلمين (!؟) عائقاً آخر يمنع

التخيل والبحث في المثل العليا للحكومات والهيئات الاجتماعية[1].

هذا وقبل أن أعرض لأبواب الرسالة وفصولها أؤكد على مجموعة نقاط جوهرية:

١ ـ إننا نتتبع ظاهرة «المجتمع المثالي» في الفكر الفلسفي ولسنا بصدد الأفكار السياسية والاجتماعية لدى الفلاسفة، فهذا جانب وذاك جانب آخر وقد يكون بينهما عموم وخصوص مطلق، يلتقيان في جمهورية أفلاطون مثلاً، وينفرد الفكر السياسي والاجتماعي بالآراء العامة التي يعلنها الفيلسوف كلما سنحت له الفرصة أو وأتته الفكرة.

٢ ـ إن البحث ذو شقين:

الشقُّ الأول: هو تقديم وتحقيق ودراسة المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وإظهار حقائقه ودعائم أركانه.

وذاك هو صلب الرسالة وجوهرها.

الشقُّ الثاني: هو الدراسة النقدية في إطار عقائد الإسلام ومثله العليا بما يجلي قيم الحق والخير والجمال ويرشد الإنسانية إلى قمم السعادة وذرا الكمال.

٣ ـ اخترت من كل عصر فلسفي نمطاً للمجتمع المثالي جعلته باباً، أو فصلاً رئيساً، وأدرت حوله الدراسة ومعه المناقشة، ثم أردفته أو قدمت له بالإشارة إلى بقية الأنماط والنماذج التي قدمها فلاسفة العصر.

وقد جاء البحث ـ بتوفيق الله ـ في مدخل وثلاثة أبواب وخاتمة.

المدخل: الفلسفة والمجتمع:

تعرضت للأصل التاريخي لكلمة «فلسفة»، وقدمت تعريفاً لها يتخطى حدود المذاهب ويتجاوز واقع العصور بحيث يقترب من المفهوم

---

(١) ص ٢٤، ٢٥ من أحلام الفلاسفة.

العام الشامل، وذكرت خصائص الموقف الفلسفي، وأثبت أن تاريخ الفلسفة هو سجل حافل للكفاح العقلي من أجل الحياة.

الباب الأول: جمهورية أفلاطون: وفيه خمسة فصول هي:

الفصل الأول: المناخ الفكري وعوامل التأثير الاجتماعي.

ألمحت فيه إلى أسرة أفلاطون الارستقراطية، وتحدثت عن المدرسة التي تخرج منها وأعني بها التيارات الفكرية والاتجاهات الثقافية التي كونت فكر أفلاطون وفلسفته، وقد مرت هذه المدرسة بمرحلتين:

أ ـ التلمذة على سقراط.

ب ـ عهد التنقل والرحلات.

وأخيراً تبوأ أفلاطون كرسي الأستاذية فأنشأ الأكاديمية.

وأشرت إلى الجوانب السياسية والاجتماعية لعصره من أجل معرفة الواقع الذي سبق تفكيره والبواعث التي حدت به إلى رفضه وتجاوزه.

وألقيت نظرة على هامش الجمهورية شملت نشأة السوفسطائيين وأشهر زعمائهم والقضايا التي أثاروها، والمعت إلى أسلوب الحوار الأفلاطوني ومنهج الرواية المسرحية في كتبه، وذكرت شخصيات محاورة الجمهورية وملامحها العامة.

الفصل الثاني: شؤون الأسرة ومنهج التربية.

حاولت أن أستوضح نظرة أفلاطون ونظريته حول شؤون تتعلق بالأسرة واتجاهات ومناهج في التربية، فأبرزت رأيه في قضية المرأة ودعوته إلى المساواة الكاملة بينها وبين الرجل وشرحت ثالوثه الشيوعي المتمثل في:

١ ـ شيوعية النساء.

٢ ـ شيوعية الأولاد.

٣ ـ شيوعية الملكية.

ثم عرجت إلى فلسفته في الطب الوقائي ورفضه للطب العلاجي، ووصفت وصفاً تفصيلياً منهجه التربوي الذي جعل غايته تنسم صورة الخير الأسمى ومعرفة حقائق الوجود العليا، وشرحت أسطورة الكهف الأفلاطوني وما يمثله من اتجاهات تربوية.

وفي ختام الفصل قدمت تعليقاً ومناقشة، فأبرزت سلبيات المنهج وإيجابياته. ورددت الاتهام الموجه إلى أفلاطون بأنه لم يقدم نظرية شاملة في التربية، وأخيراً صغت نظرية الإسلام في المرأة والأسرة في خطوط عامة لأن الأشياء تتميز بضدها.

الفصل الثالث: السياسة ونظم الحكم.

تتبعت الاتجاهات التالية لدى أفلاطون:

١ ـ نشأة الدولة.

٢ ـ عدالة الدولة.

٣ ـ حكم الفلاسفة.

٤ ـ القضاء والتشريع.

٥ ـ العلاقات الدولية.

٦ ـ أنواع الحكم.

وبينت صدق العبارة القائلة: إن أفلاطون لم يصل إلى الفلسفة إلاّ عن طريق السياسة ومن أجل السياسة.

وعقبت بمجموعة ملاحظات على التحليل العميق الذي قدمه افلاطون لتعاقب الدول، والقاعدة العامة التي ساقها للتغير الدستوري، وسقت مرقف القرآن الكريم وتصويره المعجز لكيفية فساد الأمم وبعدها عن الحق والصراط المستقيم، وعلقت على انتقادات أخذها بعض المعاصرين على أفلاطون، ووجهتها الوجهة السديدة وأظهرت خطأها في أسلوبها العام، ثم أضفت بعض المآخذ الأخرى على النظرية السياسية لدى أفلاطون.

وفي النهاية أبرزت أصول الحكم الإسلامي.

الفصل الرابع: الفضيلة ونظرية الفن.

عرضت فيه حملة أفلاطون على آراء السوفسطائيين وشرحت قوى النفس وفضائلها وتكلمت عن السفهاء من الناس الذين تباعدوا عن الفضيلة، وجليت نظرية الفن الأفلاطونية وكيف ربطها بنظرية المُثل التي هي محور فلسفته، وأوضحت قوانين الشعر والأدب التي سمح بها أفلاطون في دولته المُثلى وكذا قواعد الموسيقى والغناء.

ثم وقفت وقفة تأمل ناقشت فيها قضية «الفضيلة علم والرذيلة جهل» ووصفت رأي أفلاطون في الأسلوب الأدبي بأنه يميل إلى الغلو في النقد والتكلف في التوجيه، ثم أبرزت الجانب الأخلاقي في الإسلام كمثل أعلى للبشر تتقاصر دونه كل الفلسفات.

الفصل الخامس:

جمهورية أفلاطون بين الواقع التاريخي والأثر الفلسفي: تتبعت الأصول التاريخية لفكر أفلاطون ورددته إلى نظام الحكم في أسبرطة وفلسفة فيثاغورس وأساطير الهند وحكمة المصريين القدماء، وأقمت الدليل على الإطار الواقعي للجمهورية وأنها ما كانت بالصورة الخيالية لنموذج عقلي لا يعالج واقعاً ولا يحل مشكلة ولا يترك أثراً على جدار المجتمع.

وأشرت إلى التطور الفكري لأفلاطون وتصوراته الأخرى التي قدّمها في محاورة «السياسي» ومحاورة «القوانين» وتكلمت عن رأي أرسطو في أستاذه وقدمت عرضاً سريعاً لكتاب «السياسة» ثم ختمت الفصل ببيان سبق أفلاطون وتأثيره على مدارس الفكر الفلسفي قديماً وحديثاً.

الباب الثاني: مدينة الفارابي الفاضلة.

وفيه أربعة فصول هي:

الفصل الأول: المؤثرات الفكرية والسياسية في فلسفة الفارابي

الاجتماعية: تعرفت على مناخ البيئة التي نشأ فيها الفارابي وتحسّست جذور فلسفته في عمق الفكر الإسلامي وتبين لي أن المؤثرات التي وجهت فكره الاجتماعي هي:

١ ـ الإمامة والخلافة قضية الفكر الإسلامي الأولى.
٢ ـ ضعف الخلافة العباسية.
٣ ـ رحلاته إلى مراكز الحركة الفكرية في بغداد ودمشق وحلب ومصر.
٤ ـ الانتماء الفكري لأفلاطون وأرسطو.

الفصل الثاني: الاجتماع الإنساني والمدينة الفاضلة.

بسطت رأي الفارابي في العمران البشري وتقسيمه المجتمعات إلى نوعين:

١ ـ كاملة: وتشمل الدولة العالمية والدولة القومية ودولة المدينة.
٢ ـ غير الكاملة: وتشمل باقي المجتمعات الأخرى سواء في القرية أو الحي أو المنزل.

وعرضت الشروط الفطرية والمكتسبة التي وضعها الفارابي لرئيس المدينة الفاضلة، وقدّمت صورة لأضداد المدينة الفاضلة تشمل: تعريفاً للمدينة الجاهلية والمدينة الفاسقة والمدينة المبدّلة والمدينة الضّالة.

وأخيراً قمت بتحليل وتعقيب بينت فيه أن الفارابي لا يقدم منهجاً للحياة، ولا دستوراً للحكم، ولا يشرح نظام تربية ولا خطة اقتصاد، وإنما تقوم مدينته الفاضلة على ركنين هما:

١ ـ عقائد.
٢ ـ رئيس.

وذكرت الأسباب التي حدّت بفلاسفة المسلمين إلى الجمع بين الفلسفة والنبوة. وسجلت عدة ظواهر فلسفية تؤكد سبق الفارابي ودقة

تفكيره، اللَّهُمَّ إلاّ عثرته التي لا تجبر في قوله بوحدة النفوس السعيدة في الملأ الأعلى والعدم للنفوس الجاهلية.

الفصل الثالث: عقيدة أهل المدينة الفاضلة.

ألمحت إلى أن السعادة المنشودة لأهل المدينة الفاضلة منوطة بعقائد وآراء تخيلها الفارابي في فلسفته الإلهية والطبيعية والإنسانية ثم شرحت كيف بدأ الفارابي كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» بالتنزيه الكامل للموجود الأول وكيف استدل على نفي الشريك والضد والحد.

وقدمت تصور الفارابي لنظام الوجود، وتسلسل الكائنات، وفصلت القول في نظرية العقول، ثم سقت تقسيم الفارابي لقوى النفس ورأيه في العلاقة بينها، ومراحل العقل النظري وتفسيره للنبوة ورؤية الملَك.

ثم عقبت ببيان مشكلة الصفات الإلهية، والقول المعتمد فيها، ونقضت نظرية العقول من أساسها، وأظهرت أصولها الوثنية وشطحات الخيال فيها، وأثرت الكلام حول النبوة والفلسفة وبيّنت مخاطر ومزالق نظرة الفارابي إلى النبوة.

الفصل الرابع: مكانة مدينة الفارابي الفاضلة بين كتب الفلسفة.

قارنت بين كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» وكتابين آخرين للفارابي هما:

١ ـ السياسات المدنية.

٢ ـ تحصيل السعادة.

وشرحت الأصول الفكرية التي ترتكز عليها المدينة الفاضلة وأشرت إشارات يسيرة إلى:

١ ـ مدينة ابن سينا.

٢ ـ جزيرة ابن طفيل.

٣ ـ دولة ابن خلدون.

وقدمت ذلك على هامش المدينة الفاضلة للفارابي ليبقى هو قائد المسيرة وحامل المشعل وحائز قصب السبق في موكب الفلسفة الإسلامية.

الباب الثالث: المجتمع المثالي في الفلسفة الحديثة.

وفيه خمسة فصول هي:

الفصل الأول: عوامل التوجيه الاجتماعي في الفلسفة الحديثة.

بينت الروافد الفكرية للفلسفة الحديثة وجذورها التاريخية والمؤثرات التي وجهت الفكر الحديث إلى القيام بعبء تقديم أنماط للمدن الفاضلة. وتجلى ذلك في أثر الحضارة الإسلامية التي عرفها الأوروبيون عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية، وعن طريق الترجمات للمؤلفات العربية وخاصة كتب ابن رشد. وأكدت على أن الفيلسوف الأوروبي قد بهره المجتمع الإسلامي في طهر عقيدته وسمو نفسه ونقاء فكره. الأمر الذي حدا به إلى أن يتمثل صورة جديدة لبيئته المظلمة على أن تنهض من سباتها وتوجه فكرها إلى الكون الفسيح.

كذلك أظهرت الاتجاه الإنساني لعصر النهضة والعوامل التي بشرت بآفاق سياسية جديدة مثل الكشوف الجغرافية والإصلاح الديني وتقدم العلم وازدهار الفنون.

الفصل الثاني: طلائع الفكر الاجتماعي.

رأيت أن من متممات بحث المجتمع المثالي في الفلسفة الحديثة أن أشير إلى الطلائع الفكرية التي تقدمته سواء في العصور الوسطى أو في عصر النهضة، حتى تكتمل الصورة في تتابعها الزمني وقسماتها الفلسفية ولذا قدمت عرضاً موجزاً وافياً عن:

أ ـ مدينة الله، لأوغسطين.

ب ـ الأمير، ماكيا فللي.

جـ ـ يوتوبيا، توماس مور.

د ـ أطلانطس الجديدة، فرنسيس بيكون.

ثم عقبت تعقيباً عاماً بأن هذه النماذج الأربعة قدمت عناصر أربعة أحاطت بالفكر الاجتماعي الحديث ووجهته مجتمعة أو منفردة وهي:

١ ـ النصرانية.

٢ ـ السياسة.

٣ ـ الاقتصاد.

٤ ـ البحث العلمي.

الفصل الثالث: جان جاك روسو والعقد الاجتماعي.

شرحت قصة ذلك النابغة الشقي، وبينت محور تراثه الفكري الذي يرتكز على:

أ ـ رأيه في الأخلاق.

ب ـ رؤيته للطبيعة.

جـ ـ منهجه التربوي.

د ـ نظريته السياسية.

ثم تكلمت بإفاضة عن منهجه في تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ورأيه في المرأة النموذجية، ثم قدمت تحليلاً وتعليقاً تناولت فيه سلبيات المنهج وإيجابياته، وقارنت بين منهج روسو ومنهج أفلاطون في التربية، وناقشت بموضوعية رأيه في الدين الطبيعي ودعوته إلى وحدة الأديان ثم قارنت بين المرأة عند روسو والمرأة في الإسلام.

وانتقلت بعد ذلك إلى مبادىء النظرية السياسية في العقد الاجتماعي وقدمت عرضاً وافياً للدولة المُثلى عند روسو في مسارها التاريخي وواقعها السياسي وأهدافها العامة.

وفي نهاية الفصل قمت بتقييم وتقويم لدولة روسو وناقشت فكرة العقد الاجتماعي هل هي حقيقة أو تشبيه؟ وقارنت بين روسو وهوبز في هذه الفكرة وأشرت إلى بعض التناقضات التي وقع فيها روسو وخاصة في مجال النبوة والوحي الإلهي حيث جمع بين احترام الرسل وتكذيبهم!!.

وأوردت نماذج العلماء المسلمين في بحثهم عن النبوات وكيفية إثباتها.

ووجه الحاجة إليها واخترت ثلاثة نماذج هي:

ابن رشد ممثلاً لفلاسفة المسلمين.

ابن تيمية ممثلاً للمدرسة السلفية.

ابن خلدون ممثلاً لمدرسة الموسوعات العلمية.

الفصل الرابع: كارل ماركس والمجتمع الشيوعى.

استخلصت ملامح شخصية ماركس وأجملتها في أنه يهودى مادى مشرد، وشرحت مصادر الفلسفة الماركسية التي تكمن فى:

١ ـ جذور الفكر المادى.

٢ ـ جذور الفكر الشيوعى.

٣ ـ الفلسفة الألمانية.

٤ ـ نظرية داروين.

٥ ـ اقتصاديات آدم سميث.

٦ ـ الثورة الصناعية.

ثم درست المجتمع الشيوعى في المجالات التالية:

١ ـ دعائمه الفكرية التي يُبنى عليها.

٢ ـ نظريته في علم الاجتماع التي يصدر عنها.

٣ ـ أسطورته الاجتماعية التي يتغنى بها.

٤ ـ واقعه التطبيقى الذي تمخض عنه.

ثم وضعت الماركسية في الميزان وقسمت الدراسة النقدية إلى شقين:

١ ـ موقف الماركسية من الدين.

٢ ـ موقفها من المجتمع.

وفي الموقف الأول أثبتُّ خطأ الماركسيين في إصدارهم الحكم الغاشم بأن الدين أفيون الشعوب، وحددت الجانب الإلهى في الإسلام، وأثبتُّ أن

الإسلام هو الدين الوحيد الذي أيقظ الإنسانية وخصائصها في الإنسان وسما به إلى الملأ الأعلى وجعله محور الكون وسيد الوجود وخليفة الله في أرضه، وشرحت منهج البحث في الألوهية وقدمت تحقيقاً عن موقف الاتحاد السوفيتي من الإسلام.

وفي الموقف الثاني بينت المناخ الذي تنتشر فيه الشيوعية، وحققت أن الحياة قائمة على صراع فكري حتمي بين الحق والباطل، وليس هناك حتمية مادية، وبسطت القول في نظرة القرآن إلى العامل الاقتصادي، وقررت أن الشيوعيين يقعون في مجموعة خطايا فاحشة حين يقولون بصراع الطبقات.

وأظهرت المأساة الفاجعة للواقع الشيوعي.

الفصل الخامس: فردريك نيتشه والإنسان الأعلى.

قدمت قصة ذلك الفيلسوف الشاعر من مولده إلى نهايته وشرحت العُمد الأساسية التي يقوم عليها مجتمع العمالقة وهي:

١ ـ الإلحاد والقضاء على أصنام الكنيسة وكهنوت رجالها.

٢ ـ دستور للحياة الاجتماعية يمجد القوة والمغامرة والسيادة.

٣ ـ الإنسان الأعلى هو أمل الإنسانية المرتقب.

٤ ـ الدورة الأبدية هي سنة الوجود.

وفي الختام جليت أصول فلسفة نيتشه، وذكرت الأسباب التي من أجلها يعتبر نيتشه أحد المنابع الرئيسية في الفكر الوجودي، ثم حملت الكنيسة وزر الإلحاد النتشوي، ورجحت أن نيتشه قد سمع عن الإسلام وأعجب به، ثم بينت أن دستور نيتشه عن الحياة الاجتماعية يتناقض مع ناموس الحياة، ولو طبقت فلسفته لكان هو أول ضحاياه، ثم قدمت بحثاً طريفاً عن التناسخ في اللغة والإصطلاح والقائلين به من مختلف المذاهب والأديان والأمور التي اتفقوا عليها وقارنتها بفكر نيتشه عن العود السرمدي واتضح أن هناك اتفاقاً واختلافاً وسجلت كل ذلك بوضوح وبيان.

الخـاتمة

عرضت فيها لأصول القضايا التي ناقشها الفلاسفة في نظرياتهم حول المجتمع المثالى، وأكدت أن جوهر الحضارة قـائم على قيم الحق والخـير والجمال التى يتوخاها الإسلام بنور عقيدته وسناء تشريعه ووفائه بمطالب المستوى الإنسانى الرفيع.

وأسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما كتبت وما توفيقى إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أُنيب.

اللَّهُمَّ اجعل منتهى مطالبنا رضاك.
وأقصى مقاصدنا ما يُعدنا لأن نلقاك.

أبو حذيفة
د. محمد سيد أحمد المسير.

مُـدْخَل

الفلسفة والمجتمع

أ ـ الفلسفة:

(إن أجلَّ نعمة ينعم الله بها على بلد من البلاد هي أن يمنحه فلاسفة حقيقيين)[1]..

حكمة نطق بها ديكارت «أبو الفلسفة الحديثة»، وهي ـ بلا ريب ـ صادقة ما دام الوصف ـ بالحقيقيين ـ قائماً: ذلك أن الفلسفة ـ كمنهج عقلي ـ حكمة في التفكير، ويقين في البحث، وخبرة في الحياة، وضرورة إنسانية يؤكدها الواقع والتاريخ.

ولكلمة «فلسفة» أصل تاريخي يشرحه «رابو برت» فيقول[2]: روى المؤرخ اليوناني «هيرودوت» أن «كريسس» قال «لسولون» لقد سمعت أنك جبت كثيراً من البلدان متفلسفاً: أي متطلباً للمعرفة.

واستعمل «بركليس» كلمة «الفلسفة» يريد بها الجد وراء التهذب، ومهما يكن من شيء فمنشأ الكلمة يُشعر بالاعتراف بالجهل والشوق إلى المعرفة، قال فيثاغورس ـ والأصح نسبته إلى سقراط ـ:

(الحكمة لله وحده وإنما للإنسان أن يجد ليعرف، وفي استطاعته أن يكون محباً للحكمة، توّاقاً إلى المعرفة، باحثاً عن الحقيقة).

---

(١) مبادىء الفلسفة ترجمة د. عثمان أمين ص ٤٨.

(٢) مبادىء الفلسفة ترجمة د. أحمد أمين ص ٦.

وهذا ما يدل عليه اشتقاق كلمتي «فلسفة وفيلسوف»، فإنهما مأخوذتان من «فيلوس» ومعناها محب، «وسوفيا» ومعناها الحكمة؛ فمعنى «فيلسوف» محب الحكمة. ومعنى «سوفوس» الحكيم.

وقد كانت كلمة «سوفوس» في الأصل تطلق على كل من كمل في شيء عقلياً كان أو مادياً، فأطلقوها على الموسيقي والطاهي والبحار والنجار. ثم قصرت بعد على من منح عقلاً راقياً، فلما جاء سقراط سُمي فيلسوفاً أي محباً للحكمة تواضعاً وتمييزاً عن السوفسطائيين» ا. هـ.

ولكنَّ الفلسفة ـ مع التطور الزمني ـ أخذت اتجاهات شتى تختلف من عصر إلى عصر، ومن مذهب إلى مذهب، وقد اتفق أرسطو وابن سينا وديكارت على أن الفلسفة تشمل جانبين هما:

الجانب النظري ـ والجانب العملي.

وهما معاً المعرفة الكاملة والعلم الشامل.

ويشمل الجانب النظري العلم الطبيعي والرياضي وما بعد الطبيعة، وخص أرسطو «ما بعد الطبيعة» باسم الفلسفة الأولى والعلم الإلهي؛ لأن أهم مباحثها هو «الله» باعتباره الموجود الأول والعلة الأولى، ويشمل الجانب العملي الحكمة المدنية والحكمة المنزلية والحكمة الخلقية، أو المجتمع والأسرة والنفس.

وشبّه ديكارت الفلسفة بشجرة جذورها الميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة) وجذعها العلم الطبيعي وأغصانها باقي العلوم، وهذه ترجع إلى ثلاثة كبرى ـ في نظره ـ هي الطب والميكانيكا والأخلاق.

ولكن هذه النظرة الكلية إلى الفلسفة باعتبارها الأم الرؤوم التي تحتضن أبناءها ما لبثت أن تقلصت، وشهدت العصور الحديثة حركات انفصال متوالية، فانفصل علم الطبيعة على أيدي كل من جاليليو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) ونيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٦). وتبعه علم الكيمياء على

يدي كلود برنار (١٨١٣ ـ ١٨٧٨)، وشهد القرن العشرين انفصال كل من علم النفس وعلم الاجتماع.

وخلال تلك الفترة تهاوت على الفلسفة الميتافيزيقية محاول هدم كثيرة ابتداءً من نقد العقل النظري للفيلسوف الألماني «كانت» (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤)، ووضعية أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) والتجربة الوجودية على أيدي كل من كير كجورد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) وهيدجر (١٨٨٩ ـ) وسارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠)، والصراع الطبقي والمادية التاريخية عند ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٩٣).

والواقع أن الفلسفة ـ كظاهرة إنسانية ـ متأصلة في أعماق النفس الإنسانية تدفع دفعاً قوياً إلى معرفة حقائق الوجود الكبرى، وما أصدق أرسطو حين قال[1]:

(فلنتفلسف إذا اقتضى الأمر أن نتفلسف، فإذا لم يقتض الأمر التفلسف وجب أن نتفلسف لنثبت أن التفلسف لا ضرورة له)!.

* * *

ومن هنا أراني في حاجة إلى تقديم تعريف للفسلفة يتخطى حدود المذاهب، ويتجاوز واقع العصور بحيث يقترب من المفهوم العام الشامل.

وهذا التعريف يكمن فيما يلي:

الفلسفة هي البحث عن الحقيقة مطلقاً في الألوهية أو الطبيعة أو الإنسان بنظرة عقلية مجردة.

ويقوم هذا التعريف على ثلاثة أصول:

١ ـ البحث عن الحقيقة.

فالفلسفة بحث عن الحقيقة وليست هي الحقيقة بعينها، وهي روح

---

(١) أسس الفلسفة ـ توفيق الطويل ص ١٩٠.

وثابة، وحوار دائم، وتساؤل مستمر قد يصل إلى الجواب وقد يبقى محتاجاً إليه.

٢ ـ في الألوهية أو الطبيعة أو الإنسان.

فهذه هي موضوعات الفلسفة قد تجتمع وقد تنفرد، ولا تخلو فلسفة عنها، وعلى هذا فإن الذين يريدون أن يجعلوا الفلسفة كشفاً عن الإله ثم اتصالاً به ويعرفونها بأنها[1]:

(المحاولات التي يبذلها الإنسان عن طريق العقل وطريق التصفية ليصل بها إلى معرفة الله).

هؤلاء قد جروا واسعاً، كذلك فإن محاولة إخراج المنطق عن نطاق الفلسفة ـ هي قضاء على الفلسفة نفسها، وما كان أرسطو مخترعاً للمنطق وإنما هو واضع التعاليم المنطقية ومخرجها من القوة إلى الفعل ـ كما يقول الشهرستاني ـ[2]: (وحكمه حُكم واضع النحو وواضع العروض، فإن نسبة المنطق إلى المعاني التي في الذهن كنسبة النحو إلى الكلام، والعروض إلى الشعر، وهو واضع لا بمعنى أنه لم تكن المعاني مقومة بالمنطق قبله فقومها بل بمعنى أنه جرد آلته عن المادة فقومها تقريباً إلى أذهان المتعلمين).

٣ ـ بنظرة عقلية مجردة:

وذلك لتمييز الفلسفة عن العلم التجريبي الذي يخضع لتجربة المعمل بملاحظاتها وفروضها وتحقيقاتها.

والتجرد ـ بحسب الطاقة البشرية ـ قد يكون قائماً على الحرية الفكرية، والفطنية الكاملة، واليقظة التامة، وقد يكون مغلفاً بهوى أو مطلسماً ببدعة أو متأثراً بخرافة.

---

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام ـ دكتور عبد الحليم محمود ص ٢٤٥.

(٢) الملل والنحل ـ تحقيق محمد سيد كيلاني جـ ٢ ص ١١٩.

وتنال المذاهب الفلسفية حظها من الصدق بمقدار تجردها، وفي كلتا الحالين هي فلسفة صادفت الحق أو لم تصادفه!.

هذا وللموقف الفلسفي خصائص تميزه أجملها أحد الباحثين في جامعة مكسيكو الجديدة في تسع هي[1]:

١ ـ إنه موقف قلق وحيرة ودهشة، فالفلسفة تبدأ بالقلق الذي يعتري الإنسان حين تصادفه ظاهرة تتطلب تفسيراً، وتصدر عن الحيرة التي تستولي عليه حين يجد مشكلة تنتظر حلاً، وتنشأ عن الدهشة التي تنتابه عند الشروع في التفكير وتغريه بحب الاستطلاع.

٢ ـ إنه موقف شك يرفع صاحبه فوق الاعتقاد التعسفي الذي يفتقر إلى ما يبرره، وبغير الشك المنهجي الذي ينشد المعرفة الحقيقية لا يكون تفلسف.

٣ ـ إنه موقف تأمل وتفكير، فمجرد مواجهة مشكلة لا يكفي لإيجاد موقف فلسفي بل لا بد من أن تثير المشكلة تفكير الإنسان.

٤ ـ إنه موقف تسامح وسَعه صدر، إذ لا يكفي أن يساور الإنسان شك بصدد معتقداته، بل يقتضي الموقف الفلسفي أن نصغي لكل رأي ونستجيب لقول القائل: (متى اختلف عاقلان وجد كل منهما ما يتعلمه من قرينه).

٥ ـ صاحب الموقف الفلسفي يميل دائماً إلى الاسترشاد بما تشير به الخبرة ويمليه العقل، ومن أجل هذا اتّسم الموقف الفلسفي بالاستعداد لاستبدال الآراء والتخلص من بعض المعتقدات متى وجدنا في غيرها ما يبرر التسليم به.

٦ ـ إنه موقف ارتياب وتعليق للحكم، ذلك أن صاحبه يميل إلى أن يظل في ريب بشأن كل موضوع لا يجد دليلاً كافياً على صحته.

---

(١) أسس الفلسفة ـ توفيق الطويل ص ١٢٥ بتصرف.

٧ ـ إنه موقف عقلي يرتفع فوق الشك الهدام الذي يعرقل النظر العقلي ويشل طلاقة التفكير.

٨ ـ إنه موقف يتسم بالمثابرة وهو جهد عنيد في سبيل التفكير الواضح الذي يكشف الحجب ويرفع الأستار، إذ التأمل الخاطف أو الشك المنهجي المؤقت لا يكفي لجعل صاحبه فيلسوفاً.

٩ ـ أنه موقف يتجرد عن العاطفة والانفعال ويرتفع فوق مؤثرات الحب والكراهية.

تلك هي خلاصة الخصائص التي يتسم بها الموقف الفلسفي، وهي تؤكد ما ذهبنا إليه في تعريفنا للفلسفة في إطارها المنهجي العام.

بقيت نقطة أثارت جدلاً كثيراً وهي أين نشأت الفلسفة؟. ومن هم أربابها الأول؟.

والناس فريقان:

فريق يعتبر طاليس الإيوني (٦٢٤ ـ ٥٥٠ق.م) أول فيلسوف نظر في الكون نظراً عقلياً.

وفريق يرجع بالفلسفة إلى أصول شرقية في مصر والهند.

ولكل فريق أنصار ولكل منهم مرجحات، وقد غالى بعضهم فزعهم أن الفلسفة اليونانية خلقها اليونان خلقاً وأنشؤها إنشاء فهي وليدتهم وربيبتهم[١].

ولكن الإنصاف ما قاله «هنري توماس»[٢]:

(حب الحكمة كالشمس تماماً بزغ نوره في الشرق، ثم ما لبث أن انتشر تجاه الغرب، وليس في وسعنا أن نفهم فلسفة اليونان فهماً تاماً إلّا إذا عرفنا أنها مدينة للفلسفة ـ أو على الأقل ـ على صلة بالفلسفة في مصر وفارس والهند والصين وفي العهد القديم).

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية ـ د. أحمد أمين، د. زكي نجيب محمود ص ١١.

(٢) أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم ـ ترجمة متري أمين ص ٦٧.

وهذا ما يرجحه رحلات فلاسفة الإغريق إلى الشرق من أمثال طاليس وفيثاغورس وأفلاطون، ويزكيه التراث الشرقي الذي قدم نظريات في مسائل من صميم مباحث الفلسفة مثل الخير والشر والمصير الإنساني والوجود العام.

ب ـ من أجل الحياة:

إن تاريخ الفلسفة هو سجل حافل للكفاح العقلي من أجل الحياة ممثلة في حقائق الوجود الكبرى، ومكانة الإنسان في الكون حوله، ومناهج المسيرة البشرية نحو السعادة.

ذلك هو هدف الفلسفة الذي عبرت عنه مذاهبها في صيغ مختلفة.

فالمدارس الطبيعية الأولى بدأت تفكر في المادة التي يتألف منها الوجود ورأت أن الأصل الذي صدرت عنه هو الماء أو الهواء أو النار أو العناصر الأربعة أو العدد أو الجوهر الفرد.. إلخ.

واستمرت تُجادل حتى جاء سقراط (٤٦٩ ـ ٣٩٩ق.م) فأنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، ووجهها وجهة إنسانية تحاور في الأخلاق وتعنى بفضائل النفس الإنسانية.

وتبعه أفلاطون الذي نادى بعالم المُثل في السماء وجمهورية الفلاسفة الملوك على الأرض.

واستمرت الفلسفة اليونانية قائمة على يدي أرسطو صاحب التعريف المشهور بأن «الإنسان حيوان مدني»، والعبارة الشائعة بأن «من يعيش بلا دولة إمّا أن يكون بهيمة أو إلهًا»!!.

واختتمت الفلسفة اليونانية قصتها بإبراز الجانب العملي من الحياة، والتماس مذاهب السعادة والطمأنينة النفسية كما تخيلها الرواقيون والأبيقوريون.

فإذا انتقلنا إلى فلسفة العصور الوسطى إسلامية كانت أو نصرانية وجدنا غايتها المُثلى متجلية في التوفيق بين نتائج الفكر العقلي وحقائق الوحي الإلهي.

وتلك غاية لها بالحياة سبب؛ لأن الإنسان المؤمن يتطلع إلى الوحدة الفكرية والهدوء العقلي الذي يحفظ عليه شخصيته الواحدة ويهيء له الاستقرار النفسي.

أما الفلسفة الحديثة فقد تعددت مذاهبها وأهدافها، وهي في كل ما نقضته أو أثبته إنّما تدّعي لنفسها اتصال الفكر بالحياة والحفاظ على شرف النزعة العملية وتحرير العقل من قيود الوهم.

وقد نادى فرنسيس بيكون - أبو التجريبية الحديثة - (١٥٦١ - ١٦٢٦) بتحطيم أوهام العقل وأعلى من شأن المنهج الاستقرائي، وأعتبر ديكارت - أبو الفلسفة الحديثة - (١٥٩٦ - ١٦٥٠) المعرفة الكاملة بكل ما في وسع الإنسان معرفته بالإضافة إلى تدبير حياته وصيانة صحته واستكشاف الفنون - تعريفاً للفلسفة، وما كانت مذاهب الوضعيين والماركسيين والبرجماتيين والوجوديين - بصرف النظر عن خطئهم أو صوابهم[1] - إلاّ محاولات يقدمها الفكر الفلسفي على طريق المسيرة الطويلة من أجل الحياة.

وإن ننسى لا ننسى المشاركة الفعلية من جانب الفلاسفة على مدى العصور؛ فقد أعدم سقراط بتهمة إفساد شباب أثينا، ورحل أفلاطون إلى صقلية ليربي حاكمها الجديد «ديونيسيوس» الثاني على نمط الملوك الفلاسفة فلما فشل أنشأ الأكاديمية؛ ليُخرّج المشرعين والحكماء، وكان أرسطو أستاذاً للإسكندر المقدوني، وأصطفى الخليفة العباسي المعتصم فيلسوف العرب

(١) في الباب الثالث نجد دراسة وافية عن الماركسية في الميزان وتقييماً لفكر نيتشه.

«الكندي»؛ ليكون مؤدباً لابنه أحمد، واتصل فيلسوف المسلمين غير مدافع «الفارابي» بسيف الدولة الحمداني وشاركه في حملته على دمشق لتأديب أهلها، وتقلد الشيخ الرئيس «ابن سينا» الوزارة لشمس الدولة في همدان، وعيّن: فرنسيس بيكون مستشاراً فوق العادة للتاج البريطاني، وأمسكت الثورة الفرنسية بمؤلفات جان جاك روسو واعتبرتها إنجيلها. ومن جهة أخرى فإن الصراع الدائر في القرن العشرين قائم على تنازع فكري بين عقائد مختلفة ومذاهب متباينة ونظم متقابلة، فالحرب العالمية الأولى قامت على تخوف من المسألة الشرقية ولمحاولة القضاء على ما سُمِيّ بالرجل المريض بما يمثله من عقائد ونظم.

والحرب العالمية الثانية قادها هتلر تحت تأثير من فلسفة الإنسان الأعلى...

والحروب الإقليمية التي تدور رحاها في أرجاء متعددة من الكرة الأرضية يحركها فكر رأسمالي أو يثيرها فكر شيوعي.

جـ ـ المجتمع المثالي:

وعلى هذا الدرب حاول كل فيلسوف أن يقدم للبشر نظرية في العقيدة أو منهجاً في الأخلاق أو نظاماً للمجتمع أو دستوراً للدولة، وألقى كل منهم بدلوه، وأصبحت شؤون الحياة من أبرز مسائل الفلسفة، وأضحى الفكر السياسي والاجتماعي يمثل تراثاً ضخماً في إطار الفكر الفلسفي.

ولكن بعض الفلاسفة ـ على اختلاف عصورهم ـ قد نهض بعبء تقديم أنماط للمدن الفاضلة ونماذج للمجتمعات المثالية في محاولة لتحقيق أحلام البشر في إقامة الفردوس الأرضي.

والفرق بين أصحاب هذا الفكر «اليوتوبي» وغيرهم من الفلاسفة

أنهم أرباب فكر شمولي ينظر إلى الناس من خلال مجتمعاتهم كي يقوم بالإصلاح الكلي في جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بينما يقتصر غيرهم من الفلاسفة على مجرد إلقاء النصيحة في جانب خاص من الحياة يأتي عرضاً في مذهبهم الفلسفي.

ومن هنا فإن، المجتمع المثالي، في الفكر الفلسفي يمثل قمته وذروة سنامه وهو في نفس الأمر خلاصة وافية لفكر الفيلسوف، ووثيقة تاريخية هامة لعصره، وأحد أركان المسيرة الإنسانية نحو آمالها الكبرى، وإذا تتبعنا هذا الجانب من الفكر الفلسفي فسنجد ذخائر حية ورصيداً ضخماً. فهناك على سبيل المثال:

جمهورية أفلاطون واسطة عقد فلاسفة اليونان الكبار.

وآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي الذي وصف بأنه المعلم الثاني وفيلسوف المسلمين غير مدافع.

وتزاحمت في الفلسفة الحديثة نماذج عدة وتصورات مختلفة تمثلت طلائعها في:

أ ـ مدينة الله، للقديس أوغسطين.
ب ـ الأمير، لماكيا فللي.
جـ ـ يوتوبيا، لتوماس مور.
د ـ أطلنطس الجديدة، لفرنسيس بيكون.

وقامت أركانها على:

١ ـ العقد الاجتماعي لجان جاك روسو واتخذته الثورة الفرنسية إنجيلاً لها.
٢ ـ المجتمع الشيوعي لكارل ماركس الذي استطاع أنصاره في غفلة من الحق ورجاله أن يؤسسوا دولة كبرى.
٣ ـ مجتمع العمالقة كما تصوره فردريك نيتشه صاحب نظرية

«السوبرمان»، التي أوحت للزعيم الألماني «هتلر»، أن يقود حرباً عالمية أهلكت الحرث والنسل.

* * *

وأحسبني - في غير حاجة - إلى تأكيد أن باحثاً يتصدى لهذا الجانب بالبحث والدراسة والتحقيق - لتحمل تبعات جساماً، ومحقق فوائد جمة للعلم والفلسفة.

* * *